الحرف وعلاقته بالكلمة والجملة

د. عبد الحميد علي أبو مداس
الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية

ما هو الحرف؟.
هل هو الصوت؟.
وإذا كان كذلك، فهل هو مفرد أو مركب ؟، أو هو الرمز الكتابي؟.
وإذا كان كذلك، فهل الحركة جزء منه أم هي حرف مستقل؟.

والعجيب أن هذه الحركة لو كتبناها بغير الخط العربي لأصبحت حرفا يعد ويحصى وله صورة وحدود محصورة في السطر، فمثلا (مَن) أو (مِن) لو كتبناها باللاتيني لأصبحت (Min\Man)، وهذه الحركة مهمة جدا لدرجة أنها تغير الكلمة من اسم إلى حرف والعكس صحيح .

نرجع فنقول: إن هذا ليس عيبا في النظام الكتابي في العربية، ولكن طبيعة اللغة أي لغة هكذا، لأن الله أراد أن يكون الكمال له فقط. فلو بحثنا في الإنجليزية أو الإيطالية مثلا لوجدنا عيوبها أكثر، وتظهر هذه العيوب بوضوح لو قارناها بالعربية، ففي الإنجليزية والفرنسية مثلا نكتب حروفا كثيرة ولا تنطقها أو تنطقها بأصوات أخرى لا تمت لهذا الحرف بصلة، والأمثلة علي ذلك أكثر من أن تعد، وأوضح من أن ينص عليها.

والحروف العربية مناسبة للغة العربية تماما كما هي عليه ولا تحتاج إلى تغيير أو تطوير انطلاقا من الحديث الشريف (كل ميسر لما خلق له)، والحروف العربية ميسرة للغة العربية كما يبدو، ومصداقا لذلك لو قارنا بين طبيعة العربي وطريقة تفكيره لوجدنا أن العربي سريع الفهم للغته مهما كسر وغير فيها الأجنبي، لأنه- أي العربي- يفهم المراد من الأجنبي المستعمل للعربية دون عناء، بينما الأمر على العكس تماما بالنسبة للأجنبي فإنك لو غيرت قليلا في أي كلمة أجنبية فإنه من المستحيل أن يفهم الأجنبي منك شيئا.

ولعل هذا من العناية الإلهية التي جعلتنا لا نحتاج إلى الدقة المتناهية في الشكل الكتابي الذي يعِين – طبعا- على فهم المعنى، فالسياق الذي هو جزء من طبيعة اللغة العربية يحدد لنا ما إذا كانت الكلمة (مَن) أو (مِن) مثلا، هذا السياق لا يوجد أصلا في بعض اللغات ، فاللغة الصينية مثلا لا توجد بين رموزها الكتابية أية علاقة تربط رمزا بآخر، فأي رمز من رموزها يدل على معنى كامل مستقل لا يؤثر ولا يتأثر بما قبله أو بعده، فكل رمز من رموزها لا يعد حرفا ولا كلمة بل جملة تامة مستقلة ؛ لذا فهي تقرأ من جميع الجهات ولا يتغير المعنى،[1] وهذا ينطبق إلى حد ما على اللغة الهيروغليفية أو القبطية القديمة، ولا ننسى أنه يوجد في العالم ثلاثة أنواع من الأنظمة الكتابية : نظام الكلمة، نظام المقطع، نظام الحرف وهذا ينسجم . نوعا ما . مع تصنيف اللغات في العالم إلى ثلاثة أصناف[2]:

- ☒ عازلة = نظام الكلمة.
- ☒ لاصقة = نظام المقطع.
- ☒ اشتقاقية = نظام الحرف[3].

وهذا التصنيف يعكس المراحل التاريخية للغة، فتبدأ عازلة ثم إلصاقية ثم اشتقاقية، كما هو ملاحظ من تعلم الطفل للغة.

وبعد هذه الجولة التي أرى أنه لا بد منها؛ لأن علاقتها بالموضوع جد وطيدة، نعود للحرف في اللغة، ولا نبالغ إذا قلنا: إنه حجر الأساس الذي لا تقوم اللغة بدونه،

---

(1) ينظر أسس علم اللغة، ماريوباي، ترجمة أحمد مختار عمر ص60.

(2) An Introduction to language p. 149 .

(3) ينظر نظرات في اللغة د. محمد مصطفى رضوان ص 78.

ونقصد اللغة المكتوبة، وإذا توسعنا في معنى الحرف وقلنا: إنه يشمل الصوت فيشمل المنطوقة أيضا.

والحرف – في اللغة – له معان كثيرة ، ومن أبرزها الطرف والحافة، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ (الحج: 11)، وإذا فتشت كتب المعاجم وجدت الكثير من المعاني المختلفة لهذه الكلمة، والذي يهمنا هنا نوعان: حروف معاني وحروف مباني، والفرق بينهما أن حروف المعاني تتوقف على أو تتشكل من حروف المباني لا العكس. فما هو الحرف يا ترى؟.

الحرف . مطلقا . هو: اسم للرمز الكتابي الذي تتكون منه الكلمة، هذا ما يسمى بحرف المبنى ، وهذا الحرف يسمى بالفونيم=(phoneme) ، وهو وإن كان لا يستقل بالمعنى فهو يؤثر في المعنى بالتغيير أو بالزيادة والنقصان. فالصرفيون يقولون : الزيادة في المبنى . أي في الحرف . تدل على الزيادة في المعنى، وهذه قاعدة عامة تشمل حروف المباني وحروف المعاني ؛ لأنك . أحيانا . تزيد في حروف المباني بتكريرها أو بتضعيفها، وهي الطريقة الوحيدة لزيادة حروف المباني على ما أعتقد، فكلمة «كسَر» تختلف عن كلمة «كسَّر»، وكلمة «قطَع» تختلف عن كلمة «قطَّع» ، ولهذا النوع من الزيادة معان كثيرة تطلب في كتب الصرف ، والسؤال هل الزيادة في الكم أو الكيف أو فيهما معا ؟

هناك بعض كلمات بنيت من أول مرة على هذا التضعيف ، فهل نعتبره زيادة حتى وإن كانت الصيغة المجردة معدومة مثل: «وصَّى» و «جرَّب» أفعالا ؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب أضعها بين أيدي القراء للإجابة والرد والمناقشة ، ولإثراء الموضوع والبحث العلمي. كثيرا من النقاط النحوية والصرفية أو في درس القواعد . عموما . ارتبطت بالحرف، فتجد . مثلا . أحرف المضارعة وحروف الزيادة، وأحرف اللين، وأحرف العلة، وحروف الهجاء، بالإضافة إلى معان أوسع[4]، فكيف تصنف هذه المجموعة الكبيرة من الحروف التي لم نذكر إلا قليلا منها على سبيل المثال ؟ إذ هناك حروف الجر، وأحرف النداء إلى ما لا نهاية، وأحيانا يطلق على بعض هذه المجموعات : «أدوات» .

كل هذه الحروف تختلف عن حروف المباني؛ لأنها جزء من الجملة، وليست جزءا من الكلمة كحروف المباني؛ ولذلك أطلق عليها اسم مورفيم (morpheme) ، وهي

[4] ينظر كتاب " التعريفات" للجرجاني. ص 90.

تختلف عن حروف المباني، من حيث إنها تضيف معنى جديدا للكلمة أو للجملة، وهي تعتبر. في أكثر الأحيان . جزءا من الجملة، . وفي أقلها . جزءا من الكلمة، وهي . أيضا . غالبا ما تتكون من أكثر من حرف هجائي واحد.

وأحرف الهجاء : ألف ، باء، تاء، ثاء ...الخ، هي أسماء لأصوات اللغة أو هي . بعبارة أخرى . رموز وعلامات تدل على أصوات اللغة، وهو ما يسمى بحروف المباني التي تجسد اللغة المنطوقة وتجعلها محسوسة . أي مرئية . أو ملموسة بعد أن كانت أصواتا تموت بمجرد أن تنطق، حتى أن هناك سؤالا مشهورا، وهو: هل الكلمة تموت عندما تنطق أو تبدأ في الحياة؟.[5]

فلسفة لغوية تعبر عن شيئين متناقضين هما: الموت والحياة بالنسبة للكلمة ولك أن تؤيد هذا أو ذاك، حسب ما يتراءى لك من اعتبارات، وحين نتكلم عن الحرف إنما نتكلم عن الخط أو الكتابة التي كانت . ولا تزال . لها نصيب الأسد في تطور الأمم وحضارتها ورقيها وتواصلها وتسجيل تراثها وعلومها وهي الذاكرة التي لا تنسى.

وقد تنوعت الحروف أو الخطوط سواء بين اللغات أو في اللغة الواحدة فيقول : دونسون روس عن الخط العربي: "إن حروف العربية مرنة سهلة، لها في النفوس ما للصور من الجمال الفني ولا سيما حين تنقش على مداخل المباني أو الأضرحة « القبور»، سواء كانت ثلثا أو كوفيا أو نسخا[6]، وهذه شهادة نعتز بها ، وهو يقصد من الحروف الكتابة، واختراع الحروف يعتبر من أهم المخترعات الحضارية، كما هو ملموس، فعن طريق الكتابة يسجل الكاتب أفكاره وآراءه وينقلها للناس، وهل يمكن أن تتصور الحياة الثقافية بدون كتاب أو كتابة؟ .

الحرف له دور في الكلمة، ودور في الجملة، فالكلمة تتكون من مجموعة أحرف لا تزيد على سبعة في العربية، ولكنها تفوق العشرة في بعض اللغات الأخرى بل وصلت إلى سبعة وعشرين حرفا في الإنجليزية ، وإلى أكثر من ذلك في الألمانية.

قلنا: إنها لا تزيد على سبعة في العربية ، ولكن ليست كلها حروف مباني، فالكلمة أحيانا تقتصر على أحرف المباني، مثل: «كتب» وأحيانا تجمع بين أحرف المباني والمعاني معا مثل: «استكار»، ولكنها لا تخلو أبدا من أحرف المباني. فالعلاقة بين حروف المباني والمعاني هي عموم وخصوص مطلق، والمباني أعم. فأحرف المباني-

---

(5) An Introduction to language. P. 110

(6) ينظر "فقه اللغة العربية وخصائصها" ، د. إيميل بديع يعقوب، ص. 231.

قلت أو كثرت - تتعاون على إثبات معنى مفرد، مثل: «رجل» ، «قلم» الخ، أو «جعفر» و «سفرجل»، ومجموعة هذه الأحرف في الكلمات السابقة تساوي حرف معنى واحد، سواء كان مبنيا على حرف واحد مثل: همزة الاستفهام أو واو وفاء العطف، أو كان مبنيا على أكثر من حرف واحد مثل :«ما» النافية و «ثم» العاطفة. ولكن السؤال الآن هو : هل هناك كلمة في اللغة تدل على معنى واحد؟

إنه من النادر جدا، بل إن وجد أصلا أن تجد كلمة تدل على معنى واحد، فخذ مثلا كلمة «ولد» كم معنى تحمله هذه الكلمة ؟ فلأول وهلة تقول: إنها تحمل معنى واحدا، ولكن عند التأمل نجد كلمة «ولد» تحمل المعاني الآتية: الإفراد، الذكورة، الصغر في السن، الآدمية في بعض معانيها، فنحن لا نقول: البقرة أو الناقة– مثلا– ولدت أو نتجت ولداً، وإنما نخص ذلك بالمرأة، وإن كنا نقول: هذا العجل ولد هذه البقرة أحيانا، فالولد عند الإطلاق إنما يطلق على الإنسان لا على الحيوان .

إذن فإننا قد فهمنا من كلمة ولد أربعة معان وهذا الموضوع لم تناقشه اللغة العربية، ولا علماؤها لا في علم النحو ولا في علم المعاني- حسب اطلاعي-، ومع هذا فإن هذه المعاني وإن كانت تبدو مستقلة ولها ألفاظ تخص كلا منها، إلا أنها لا تصنف من قبيل المشترك اللفظي، هذه الظاهرة اللغوية المشهورة، والتي يقابلها الترادف، وإذا كان الأمر كذلك، فبماذا نسمي هذه المعاني؟ إنها معان جزئية لازمة لا تنفصل عن مدلول الكلمة.

وعليه فكل كلمة تدل على معان جزئية متعددة من مجموعة يتكون منها المعنى العام للكلمة، أو قل: معنى رئيسي إلى جانب معان كثيرة ثانوية، وما دور حرف المبنى وما علاقته بكل هذا ؟ حرف المبنى يغير الكلمة، فكلمة «ولد» مثلا لو غيرنا فيها الواو إلى باء لأصبحت الكلمة «بلد» ، ولو غيرنا اللام بالراء لأصبحت «ورد» وحين تتغير الكلمة يتغير مفهومها العام، وتبعا لذلك تتغير المعاني الجزئية أو المعنى الرئيسي والمعاني الثانوية أو التبعية.

فـ«ولد» مثلا كائن حي بينما «بلد» ليس كذلك، وربما يصنف من الجماد، وكلمة «ورد» من النبات، وهو كائن حي حياته تختلف عن حياة الإنسان ، وأيضا كلمة «ورد» تدل على الجمع بينما «ولد» يدل على الإفراد، وهذا ما يسمى بالتغيير على مستوى الفونيم (phoneme) وهو أعم وأشمل من الحرف ولكن –غالبا– يعبر عنه بالحرف ؛ لأن الحرف رمز للصوت الذي هو الفونيم ، وهو كل ما غير المعني، وإن تعلق بطريقة النطق دون المساس بحروف الكلمة ، فمثلا النبر (Stress) يغير

المعنى في اللغة الإنجليزية، كما في بعض اللهجات العربية، أما في الفصحى فتغيير موضع النبر لا يؤثر في المعنى، وإنما تقتصر حروف الهجاء علي التأثير في المعنى في اللغة العربية ،كما سبق توضيحه بالأمثلة. والآن هل جميع حروف اللغة التي تظهر في الكلمة بالفعل أو بالقوة تصنف علي أنها فونيمات ؟.

إنه يجدر بنا أولا أن نعرف الفونيم {phoneme} قبل أن نقرر ما إذا كانت جميع حروف الهجاء تعد كذلك أم لا . ولعل أقرب تعريف له هو تعريف النحاة للمفرد في باب الكلام، وهو: " ما لا يدل جزؤه على جزء معناه"[7]، فالكاف في (كتاب) لا يدل على شيء أو جزء من الكتاب مثلا، وكذلك التاء والباء، فهم – أعني النحاة – وإن عرفوا المفرد في الكلمة، إلا أنهم يشيرون إشارة واضحة ومباشرة إلى الفونيم أو الحرف، وهو ما عنوه بقولهم في التعريف «جزؤه»، فجزء المفرد أو الكلمة هو الحرف ، وهو لا يدل على معنى ولا جزء معنى ولكنهم لم يقولوا : إنه يؤثر في المعنى ويغيره، وإلا لكان التعريف تاما.

وقد عرفه علماء اللغة المحدثون بتعريفات مختلفة، لعل أهمها هو" أصغر وحدة صوتية تؤثر في المعنى[8] " أي : أنك لو غيرتها لتغير المعنى . والحرف هو الذي يعبر تعبيرا صادقا عن الفونيم أكثر من الصوت، فمثلا لو أخذنا صوت النون لوجدناه يظهر في النطق في أشكال مختلفة، فالنون قبل الباء والميم –مثلا– تأخذ صوتا غير صوتها ولكنها تكتب نونا، وكذلك قبل الياء والواو، وقبل اللام والراء . واللام الشمسية –أيضا– تظهر في الصوت الذي يليها ولكنها تكتب لاما. ومن هذه الأمثلة يتبين لنا بوضوح أن الحرف أو الكتابة عموما لا تعكس النطق بدقة، ولكن الكتابة العروضية ربما تفعل ذلك، فماذا تسمى هذه الحالة يا ترى ؟ وهل ناقشها علماء اللغة، وأعني بـ«الحالة» حين يكون الصوت في واد، ورمزه . أي الحرف . في واد آخر .

من هنا ظهر الفونيم (phoneme) ، والذي حاولنا أن نتلمس له إشارة في النحو العربي . ظهر الفونيم لكي يجمع هذا الشتات الصوتي والتفريعات التي لا نهاية لها، فالنون إذا نطقت راء أو لاما أو ميما لا زالت هي النون كتابة ونسميها فونيم النون وهذا الفونيم يظهرفيما يسمى ألوفون(allphone)

فالفونيم –إذن– فكرة مجردة والتاء تتجسد فيما أسموه «ألوفون»، وقد يكون للفونيم ألوفونا واحدا أو أكثر فالكاف والتاء وكل الحروف أو الأصوات الإنفجارية مثلا لها

---

[7] ينظر كتاب "التعريفات" للجرجاني، ص 340 .
[8] ينظر نظرات في اللغة د. محمد مصطفى رمضان، ص 252 .

نوعان من النطق، إذا كانت ساكنة في نهاية الكلمة –أي في الوقف– فالمتكلم في هذه الحالة قد يحبس النفَس بعد نطق الصوت الإنفجاري ويميته في فمه، وقد يطلقه ويخرج الهواء الذي كان محبوسا أثناء النطق بالصوت، فيسمع بصورة واضحة، ولذلك سميت انفجارية .

وهذا ما عده العلماء بالتنوع الصوتي أو الفونيم ، فصوت الكاف يكون مع النفس هكذا «كْهْ» وبدونه «كْ» والقاف وهو إنفجاري أيضا له عدة ألفونات تختلف باختلاف اللهجات، فالمصريون ينطقونه همزة، والفلسطينيون ينطقونه كافا، وبعض أهل الخليج ينطقونه جيما، والليبيون ينطقونه كالجيم المصرية، وأما أهل السودان فينطقونه بين القاف والغين حتى أنه لا يعد من الأصوات الانفجارية بل صوت احتكاكي، وهذه صفته في بعض كتب اللغة ومن بينهم سيبويه[9] الذي يعتبره مجهورا مع أنه مهموس كما أثبتت الدراسات الحديثة. هذه اللهجات في نطق القاف بهذه الأشكال المختلفة لم تأت من فراغ وإنما هي تعكس في الواقع اللهجات العربية التي وجدت قبل الإسلام، والتي نزل القرآن على سبعة أحرف وفقا لها.

فالحروف هي الحروف، والعرب هم العرب، ومهما تغيرت اللغة وتصارعت مع غيرها إلا أن الأصول العربية مازالت موجودة فيها فمثلا «تلتلة بهراء»وهي كسر حرف المضارعة مازالت موجودة إلى الآن في معظم اللهجات العربية، وتجدها منتشرة في المغرب العربي ومصر والشام وغيرها، وأيضا«العنعنة»مازالت أثارها موجودة أيضا في اللهجة الليبية، وهي تنسب لتميم في الجاهلية، ربما يسأل سائل: ما علاقة هذا النقاش بموضوع البحث؟.

والجواب أن هذه اللهجات إنما هي إبدال حرف بآخر فمثلا«العنعنة» هي إبدال الهمزة عينا مبالغة في إظهار صوت الهمزة، وتوجد كلمتان في اللهجة الليبية تحتوي على هذه الظاهرة، فكلمة «عالة»أصلها «آلة»وهي شائعة بين مختلف شرائح مواطني المغرب العربي ، فكلهم تقريبا يقولون: «عالة الشاهي»، والكلمة الأخرى، وهي أقل شيوعا ويستعملها عادة كبار السن غير المثقفين فتجدهم يقولون «معتمر» بدلا من «مؤتمر»، وهذا إنما أتى استطرادا لبيان كيف أن الصوت قد يتغير ولا يتأثر المعنى، يعني أن نطق الكلمة يتغير إلى عدة صور ومعناها ثابت.

إذن ليست كل الحروف تغير المعنى، وهذا يعني أنه ليست كل الحروف فونيمات، إذا اتفقنا أن الفونيم (PHONEME) هو الذي يغير المعنى، ويجب أن يكون

[9] ينظرالأصوات اللغوية د.إبراهيم أنيس،ص84–132.

كذلك؛ لأن هذا ما اتفق عليه علماء اللغة المحدثون ، فهل الحرف على مستوى الكلمة نوع واحد أو أكثر ؟.

الحرف كرمز كتابي نوع واحد، والحروف في كل لغة محدودة بعدد معين لا يزيد ولا ينقص، وبتبادل مواقعها في الصيغ تنتج كلمات لا نهاية لها، والحرف المكتوب المرئي يرمز لصوت منطوق ومسموع، فهل هذه الأصوات محصورة أيضا مثل حروفها؟ الأمر هنا مختلف، والأصوات تساوي الحروف فقط إذا نطقناها منفصلة عن بعضها لا ككلمات، أما داخل الكلمات فإن الأصوات تصبح لا حصر لها؛ لأن الصوت يتغير صفة ومخرجا حسب المحيط الذي يبرز فيه، فالمهموس مثلا قد يصبح مجهورا والعكس، والأمامي يصبح خلفيا والعكس، ولكن الرخو لا يصبح شديدا، أي : الاحتكاكي لا يصبح انفجاريا ولا العكس، إلا في أصوات معينة وبين اللهجات، فمثلا: «الذال» الاحتكاكي كثيرا ما ينطق «دالا» انفجاريا، وكذلك الحال بين الثاء والتاء.

أما الحرف من حيث الكتابة والنطق فهناك حروف تنطق وتكتب ، وهو الكثير الغالب، وهناك أيضا في جميع اللغات حروف تكتب ولكن لا تنطق كما تكتب، وهذا النوع كثير أيضا، ولكنه أقل من النوع السابق، وهناك حروف تنطق ولا تكتب مثل التنوين، ومثل الألف في «هذا» و «ذلك» وما شابههما مثل «الرحمن» و «أولئك» وهي قليلة، والحالة الرابعة : حروف تكتب ولا تنطق مثل همزة الوصل في أغلب حالاتها، والألف الفارقة، والواو في «عمرو»، وهذه على سبيل الأمثلة لا الحصر. وهذه الظاهرة موجودة بكثرة في اللغة الإنجليزية أيضا، فكثيرا من الكلمات التي تبدأ بحرف الكاف ولا تنطق هذا الحرف، وكذلك الكلمات المبدوءة بحرف الباء، وكثير من الكلمات يظهر في وسطها اللام، ولكنه لا ينطق أيضا، فكيف نصنف هذه الحالات الأربع ؟

إنه يمكننا أن نصنف هذه الحالات على النحو التالي :

أولا: الحرف الذي ينطق كما يكتب

وهو الفونيم (phoneme) ، مثل الكاف في «كتب» أو التاء في «تعب» أو الباء في «بعث» أو التاء والباء في نفس الكلمة «كتب»، فالفونيم إذن : صوت يغير المعنى ولا يستقل به.

ثانيا: الحرف الذي ينطق بغير ما يكتب

وهو الألوفون (allophone) الذي هو تنوع للفونيم، أو هو صوت ثانوي تابع للفونيم الرئيسي، مثل:أل الشمسية أو النون قبل الراء أو اللام التي تأخذ أصواتها، فهذه إنما هي تنوعات للام والنون، وهذا أيضا موجود بكثرة في اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية كـ«سين الجمع» التي تنطق زايا أحيانا في الإنجليزية، والتاء التي تنطق شينا في نفس اللغة أيضا وذلك بسبب ما يحيط بهما من أصوات مجهورة أو مهموسة.

ثالثا: الأصوات التي لا حروف لها

وهذا يخص نظام الكتابة في اللغة العربية لأنها آثرت أن تنطق أصواتا أو بعض أصوات على الأصح ولا ترمز لها بحروف

في الكتابة، وذلك طلبا للاختصار، واعتمادا على وضوحها، وهذا يختص بالحركة المختلف فيها، هل هي حرف أو بعض حرف؟ ونظام الكتابة في العربية كما نعلم ميز بين الحركة الطويلة والقصيرة، فحذف الأولى من السطر وأثبت الثانية، إلا في حالات قليلة جدا سبق التمثيل لها.

رابعا: عكس الحالة السابقة

وهي رموز تثبت كتابةً وتسقط على مستوى النطق فكيف نصنف هذا النوع يا ترى؟ هل هو فونيم أم لا؟ فالواو في «أولئك» واللام في «اللذَين» والألف في «كتبوا»، فهي مجرد علامات اتفق عليها الكتاب؛ لرفع اللبس بين كلمة وأخرى على المستوى الكتابي فقط، ولا علاقة لها بالنطق أو المعنى، ويقرب من ذلك الواو في مثل «أنلزمكموها»، أو بعبارة أعم، الواو الزائدة التي تفصل بين ميم الجمع وضميرالمفعول، والتي يقول عنها النحاة عند الإعراب بأنها لتزيين اللفظ، أو لتسهيل النطق.

وهذا أمر في غاية الوضوح، فالواو هذه لا معنى لها، ولكن نطق الكلمة بدونه صعب جدا، إن لم يكن متعذرا، وهذا الواو في الحقيقة لا ينطق واوا، وإنما هو ضمة طويلة، فهو لا يختلف كثيرا عن الواو في «أولئك»، هذا رأيي طبعا، ومن هذا القبيل همزة الوصل في درج الكلام. وإلى هنا ينتهي الكلام على الحرف ودوره في الكلمة، ثم ننتقل الآن إلى الشق الثاني من هذا البحث وهو:

علاقة الحرف بالجملة

فهل الحرف هنا هو الحرف هناك؟ أوهومن قبيل المشترك اللفظي؟ الحرف هناك جزء من الكلمة وهو هنا كلمة مستقلة وإن كانت من حرف واحد أحيانا. إذن حرف الهجاء وحرف المعنى من قبيل المشترك اللفظي. وهل ظاهرة المشترك اللفظي ومقابلتها وأعني بها ظاهرة الترادف، هل هما يتفقان وينسجمان مع طبيعة اللغة ووظيفتها؟ أم عدم وجودها أنسب؟ هذه القضية تعتمد على الطريقة التي تناقش بها، فإن قلنا: إن وظيفة اللغة في الحياة هي التواصل ونقل الأفكار من شخص إلى آخر، ومن مجموعة إلى أخرى بأبسط وأوضح صورة، ففي هذه الحالة يجب أن يكون لكل كلمة معنى لا أكثر، والعكس صحيح فلكل معنى كلمة لا أكثر، فلا تشترك معان كثيرة في لفظة واحدة، ولا تتعدد ألفاظ لمعنى واحد؛ لأن هذا من شأنه أن يعقد الفهم، ويصعِّب الإدراك، وخاصة لمن يحاول أن يتعلم لغة أخرى غير لغته الأصلية، فتجده في حيرة دائما، حين يستعمل القاموس في اختيار الكلمة المناسبة، أو الأنسب، وخاصة مع الحروف التي نحن بصدد مناقشتها الآن.

ولو كان لكل لفظة معنى محدد لما وقعنا في هذه الحيرة وهذا اللبس . ولكن نرجع فنقول: هكذا هي طبيعة اللغة فمازالت أحجية يكتنفها الغموض من كل جانب، سواء كان في أصلها وتفرعها أو في علاقة اللفظ بالمعنى. والحرف الذي نحن بصدده هو ما يسميه علماء اللغة بالمورفيم (Morpheme)، ولعل أقرب تعريف له هو : "أصغر وحدة صوتية تحمل معنى أو تضيف معنى أو تستقل بمعنى".

والمورفيم مثله مثل الفونيم، فهو أيضا فكرة رئيسة مجردة تظهر وتتجسد في عدة أشكال أطلق عليها الومورفات(Allomorphs). فمثلا معنى التثنية والجمع قد يكون بالألف والنون، أو بالياء والنون أو بالواو والنون، أو بالتغيير في بنية الكلمة كما في جمع التكسير، ومعنى التأنيث قد يكون بالتاء المربوطة أو المفتوحة أو بالألف المقصورة أو الممدودة، أو يكون أحيانا بدون علامة كما في «زينب»، بل إن علامة التأنيث أحيانا لا تفيده كما في «طلحة» و«حمزة»، وهذا ليس بغريب على طبيعة اللغة، فإننا نجد علامة الجمع في اللغة الإنجليزية أحيانا لا تفيد الجمع، وإنما تبقى الكلمة مفردة حتى وإن ظهرت معها علامة الجمع .

الفرق بين الحرف الأول أي الذي هو على مستوى الكلمة وهذا الحرف هو: أن الأول لا يكون إلا جزءا من الكلمة، أما هذا فأحيانا يكون جزءا من الكلمة وأحيانا يكون كلمة مستقلة، وحين يكون جزءا من الكلمة فإنه يظهر في البداية، وفي الوسط،

وفي نهاية الكلمة، كأحرف المضارعة مثلا وهمزة الاستفهام وحروف الجر، وغيرها التي تأتي دائما في البداية، بينما ألف المفاعلة وتاء الافتعال تأتي في الوسط، والضمائر المتصلة تأتي دائما في النهاية وكذلك بعض علامات الإعراب. فما يأتي في البداية أطلقوا عليه «بادئة» = (Prefix) وما يأتي في نهاية الكلمة أطلقوا عليه «لاحقة» = (Suffix)، وهما أكثر بكثير مما يأتي في الوسط (Infix)، وكل هذه اللواحق هي من قبيل المورفيم؛ لأنها تضيف معنى إلى الكلمة، ولا شيء منها من قبيل الفونيم الذي هو فقط يغير المعنى ولا يضيف شيئا جديدا، فكل الزيادات إذا استثنينا الألف الفارقة، والواو التي تزاد بعد ميم الجمع، والألف التي تكتب بعد الحرف المنون في حالة النصب، هذه الزيادات الثلاثة فقط لا تعد من قبيل المورفيم ولا الفونيم؛ لأنها لا تغير المعنى ولا تضيف معنى جديدا، وكذلك الواو التي تلحق كلمة «عمرو»؛ لأن بعض هذه الأشياء لا تلفظ أصلا، وبعضها لا تنطق لذاتها، وإنما لتعين على تسهيل النطق.

وبتحليل هاتين الكلمتين إلى مورفيماتهما الرئيسية يتضح لنا معنى المورفيم وأشكاله المختلفة (بنية ومعنى) خذ مثلا: «فسيكفيكهم»، وهي على النحو التالي: ف/س/ي/كفي/ك/ه/م/، فهذه الكلمة إذن تحتوي على سبعة مورفيمات، كل منها له معنى مستقل، ومعظم هذه المورفيمات تتكون من حرف واحد ماعدا جذر الكلمة فهو ثلاثي، وهذه طبيعة الكلمات في معظم اللغات السامية فهي ثلاثية المبنى[10] رغم أن الكثير من الباحثين يدعون أنها ثنائية، والحرف الثلث دوره التمييز بين معنيين من نوع واحد، مثل: «قطف» و «قطع»، فالقاف والطاء إذا اجتمعا على هذا الترتيب يفيدان غالبا فصل شيء عن آخر، ثم يأتي الحرف الثالث ليحدد نوع الشيء المفصول.

فـ«قطع» تختلف عن «قطف» بين اليبس والشدة واللين والرخاوة مثلا[11]، إلا أن الرأي المشهور بين النحاة والصرفيين يرى أن اللغة العربية ثلاثية الأصول، وما جاء منها على حرفين مثل: «يد، دم، أخ» ثلاثية محذوفة اللام، وهذه اللام ترجع عند عملية النسب أو التصغير، فتقول: «دموي وأخوي»، وأكبر دليل على ذلك أنهم وضعوا الميزان الصرفي على ثلاثة أحرف، وقد بسط ابن جني الكلام في هذه النقطة في كتابه «الخصائص»[12] إلى أن قال بعد نقاش طويل: "لذلك كان «فعل» أعدل

---

(10) An Introduction to the Comparative Grammar of Semitic Language. Sabatino Moscati p. 72

(11) ينظر "دراسات في فقه اللغة" د. صبحي الصالح.

(12) ينظر الخصائص .ج.1، ص 55 وما بعدها.

الأبنية". والذي يهمنا من هذا كله أن هذا الوزن مكون من حروف ثلاثة وهي فونيمات دائما، ويتكون منها ما يسمى بالمورفيم.

وأما الكلمة الثانية التي وعدنا بتحليلها إلى مورفيماتها فهي:«أنلزمكموها» وتكون كالآتي:«أ-ن-لزم-ك-م-؟-ها-»، فهي تتكون من ستة مورفيمات أو أجزاء لها معنى، أما الواو الذي وضعنا بدله إشارة استفهام فهو لا معنى له حتى يكون مورفيما، ولا يؤثر على المعنى حتى يكون فونيما، وفي نفس الوقت لا بد منه كتابة ونطقا، وقد سبقت الإشارات إلى ذلك، وبما أن هذه الواو حركة في النطق وحرف الكتابة، فما دور الحركة في هذا كله؟ وما علاقة الفونيم والمورفيم بما نسميه بالمقطع ؟ .

الحركة نوعان:

- ☒ قصيرة وهي الأكثر ظهورا، وتكون على الحرف أو تحته.
- ☒ وطويلة، ونسبتها أقل بكثير من الأولى لأن نسبة الكلمات التي لا تحتوي على حركة طويلة كبيرة جدا، في حين أنك لا تجد كلمة واحدة بدون حركة، ومكانها أمام أو بعد الحرف دائما، ولعل هذا يبين مكان الحركة من الحرف عموما.

وقد ذكر ابن جني[13] الخلاف في مكان الحركة، هل هي قبل الحرف أو معه أو بعده. ويقصد القصيرة طبعا، وسبب الخلاف أنها لا تكتب كما يكتب الحرف، ولكنها تكتب فوقه أو تحته مثل الإعجام الذي يميز بين فونيم وآخر، وخاصة في اللغة العربية، والذي لم يناقشه أحد فيما رأيت، وكان ينبغي أن يبحث؛ لأن دور الإعجام في الفونيم كدور الفونيم في الكلمة، فكما أن الفونيم يغير الكلمة من «علَم» إلى «قلَم» ومن «ولد» إلى «ورد»، كذلك الإعجام يغير الفونيم إن حذفته أو غيرت مكانه، فكلمة «فتبينوا» مثلا تصبح «فتثبتوا»، وبالمقارنة بين هاتين الكلمتين ترى أن التغيير حدث في مكان الإعجام وفي عدده أيضا دون مساس بالحروف.

أما من حيث حذف الإعجام «النقط» أو وجودها فهناك ثلاثة عشر حرفا أو صوتا أو فونيما لا نميز بينها إلا بالإعجام، وذلك مثل: «ذم، دم، حر، جر، خر» الخ، والإعجام موجود في الإنجليزية أحيانا أو- إن شئت - ففي الخط اللاتيني عموما في حرفين فقط، ولكنهما لا يتأثران إن حذف الإعجام، بل إنهما يكتبان بدونه إن وقعا في أول الجملة، لأنهما حينئذ يكتبان بالخط الكبير الذي لا إعجام فيه . ولا تتأثر الكلمة

[13] ينظر المصدر السابق. ج. 2. ص 321.

لا معنى ولا نطقا، وهناك ستة أحرف في اللغة العبرية تتأثر بالنقط وعدمه في المعني والنطق معا، مثلها في ذلك مثل العربية ،وهذه الأحرف هي :«ب، گ، د، ك، پ، ت» وهذه معجمة، وتقابلها المهملة وهي على التوالي: «ف، غ، ذ، خ، ف، ث».

واللغة العبرية في معظم أحوالها تخالف العربية، فالسين في هذه شين في تلك، والمعجم في هذه مهمل في تلك، فالدال مثلا مهمل في العربية معجم في العبرية[14] والذال بالعكس ،والسبب أن أصلهما واحد ، فلا بد من التمييز بينهما بشيء ما، والنقط أو الإعجام له عدة دلالات حسب اختلاف الأبجديات، فأحيانا يدل علي طول الحركة وأحيانا يدل علي توسطها، وأحيانا يفرق به بين الهمس والجهر ،أو بين التفخيم وعدمه، كما في (ţ) بالنقطة = (ط)، وقد لا يعني شيئا البتة كما في بعض الأحرف الإنجليزية، ولكنهم يستعملونه كثيرا في كتابة الأحرف العربية بالحرف اللاتيني للفرق بين الحركة الطويلة والقصيرة والمتوسطة.

وعلى ذكر الحركة مرة أخرى يقول المستشرق براجشتراسر[15]:

"إن النحويين القدماء وإن كانوا ألموا بخواص الحروف الصامتة إلماما مقبولا حسنا، فلم يوفقوا إلي معرفة طبيعة الحروف الصائتة ؛لأنهم كانوا يتأثرون بالخط ، خلافا للنطق..الخ".

هذا ما علق به المستشرق الألماني، ويعني بالنحاة: العرب، وبالصامتة: الحرف، وبالصائت : الحركات، وهو مصيب إلى حد ما فيما يراه، وقد نقلنا قبل قليل رأى ابن جني في الخلاف بين اللغويين في مكان الحركة من الحرف على ثلاثة آراء، وقلنا إن الصواب أن تكون الحركة بعد الحرف لا قبله ولا معه وإن كانت تكتب معه، أي: فوقه أو تحته.

ولعل هذا يوفر على الكتاب كميات هائلة من الورق، فالنظرية تكاد تكون اقتصادية في الورق والوقت ؛لأنهم وضعوها مع الحرف ثم استغنوا عنها في معظم كتابتهم ،ولم يبينوها إلا في النصوص المهمة جدا ،كالقرآن والحديث خوف التحريف الذي قد يقلب المعني رأسا علي عقب ، ووضع الحركة علي أو تحت الحرف ليس حكرا علي العربية، فالعبرية[16] أيضا حركاتها كذلك، ولعل أفضل من قارن بين أصوات اللين

---

[14] ينظر اللغة العبرية وآدابها ،ص.47.
[15] التطور النحوي للغة العربية ،ص153.
[16] ينظر الأصوات اللغوية، ص30.

"الحركات" والأصوات الساكنة "الحروف"عموما وليس في لغة معينة، الدكتور إبراهيم أنيس[17]، حيث قال ما ملخصه:

إن الحركات تشكل العقبة الكأداء أمام متعلمي اللغة لكثرة ورودها وشدة اختلافها بين كل لغة وأخرى، ولهذا فهي تحتاج إلي تركيز أكثر من الأصوات الساكنة.

وهذه حقيقة لأن الاختلاف بين الحركات في كل لغة دقيق جدا، ولا يمكن إتقانها إلا في مرحلة الطفولة، وإذا كانت الحركة – سواء كانت مستقلة أو جزءا من الحرف– بهذه الأهمية والتعقيد فما مدى تأثيرها علي المعنى ؟.

إن الحركة في اللغة العربية لا يمكن بحال أن تستقل عن الحرف لا من حيث الكتابة والنطق ،ولا من حيث البحث والتحليل ، فحركة عين الكلمة نجدها من أهم الحركات علي المستوى الصرفي ،بينما حركة اللام هي المهمة عند النحوي، وأقل منهما حركة الفاء، وإن كانت هي أيضا لها تأثير علي المعنى إلا أنه قليل نسبيا، فكلمة «ضَروب» بالفتح تختلف عن كلمة «ضُروب» بالضم، وكلمة «وَقود» بالفتح تختلف عن كلمة «وقود» بالضم وإن كان الفرق شاسعا بين المثال الأول أعني «ضروب» بالفتح والضم عن كلمة «وقود»، وكذلك إذا قارنت بين الكلمات «عَلَم، عِلْم، عُلِم، عَلِم » فأنت تجد أن حروف الكلمات واحدة، ولكن الحركات مختلفة، وباختلاف الحركات اختلفت المعاني فهل الحركات أيضا فونيمات مثل الحروف ؟.

الجواب: نعم، وإن لم يكن دائما، مثلها في ذلك مثل الحرف، فالتغير الذي يطرأ على مستوى الحرف لا يؤثر دائما في المعنى وبالتالي لا يكون فونيما والحركة كذلك، فأحيانا نقول: «كلمة» أو «كِلمة»،ولكن المعنى لا يتغير بينما «كلام» و«كلام» «كلام»– بفتح الفاء وكسرها وضمها – كل حركة لها معنى يختلف عن الآخر، وهذا من أسرار اللغة التي فضل الله بها البشر وميزهم بها عن سائر الحيوانات وقد أستأثر الله بهذا السر، ولم يطلع عليه إلا من ارتضي، ولننه هذا البحث بالنقطة الأخيرة ، وهي علاقة الحرف بنوعيه بالمقطع.

تكلمنا عن الحرف بنوعيه الفونيم والمورفيم، والفونيم ألصق بالكلمة والمورفيم أقرب للجملة، فما علاقة هذين الحرفين بالمقطع؟ أقرب شئ للمقطع هو التقطيع العروضي كما أن بعض الألقاب التي يستعملها العروضيون عند التقطيع كالسبب والوتد وغيرهما

[17] ينظر اللغة العبرية وآدابها، ص50.

لها علاقة وطيدة بالمقطع، وقد ناقشه الدكتور أحمد مختار عمر[18]، وذكر له عدة تعريفات على مستويات مختلفة ، ومن مدارس متنوعة، وقسمه إلى طويل وقصير، ومقفول ومفتوح، وكذلك فعل إبراهيم أنيس[19].

والمقطع يحتاج إلى بحث خاص به إذا أردنا الإلمام به من جميع جوانبه، ولكن الذي يهمنا الآن علاقته بالحرفين والكلمة، فالمقطع والحرف والكلمة قد تجتمع ثلاثتها في لفظة«من»– بفتح الميم وكسرها – فهي مقطع مقفول، وهي كلمة، وهي أيضا حرف معنى = مورفيم وهذا الأمر ينطبق أيضا على كلمة «في»، فيصدق عليها ما يصدق على «من» باستثناء أن هذا المقطع مفتوح أيضا ينقسم إلى مقطع حر ومقيد وهذا يصدق على المورفيم، وعلي حروف المعاني، فالمقطع الحر والمورفيم قد مثلنا لهما بمثالين كل منهما يصلح للمقطع «Syllable» والمورفيم الحرين، أما المقطع المقيد مقفولا كان أو مفتوحا فيختلف عن المورفيم أو حرف المعنى، إذ الأخير لا يكون إلا بادئة ولاحقة، وفي وسط الكلمة، وأيضا المورفيم قد يكون مقطعا حرا ومقيدا جزءا من المقطع.

وإذا حللنا هذه الكلمة مقطعيا فربما يساعدنا هذا التحليل علي توضيح هذه النقطة،وهذه الكلمة هي «فسيكفيكهم» وتحليلها هكذا :ف/س/يك/في/ك/هم/، فهي متكونة من ستة مقاطع الثالث والسادس منها مقفولان، والبقية مفتوحة، ولو حللناها علي مستوى المورفيم كانت هكذا: ف/س/ي/كفي/ك/ه/م/، فنخرج بسبعة مورفيمات ومن هنا يتبين التداخل بين الحرف والمرفيم والمقطع، فالعلاقة بين المورفيم والمقطع هي أنَّ هناك مورفيمات مقاطع، كالفاء والسين، وأخرى ليست مقاطع كحرف المضارعة فهو جزء من مقطع، وهناك مقاطع ليست مورفيمات، بل فونيمات، فكلمة «كتب» تتكون من ثلاثة مقاطع مفتوحة، وهذه المقاطع الثلاثة تشكل مورفيما واحدا، وبالعكس فإن «هم» في المثال السابق مورفيمان يشكلان مقطعا واحدا، فالخلاصة– إذن– أن عدة مورفيمات قد يشكلان مقطعا واحدا والعكس صحيح.

وقد يساوي المقطع الواحد مورفيما واحدا، وقد يتساوى كل من المقطع والمورفيم مع الفونيم، وذلك مثل «الفاء والسين والكاف» في المثال السابق، فهذه يصدق عليها اسم فونيم/ مورفيم/مقطع/، وقد ينفرد المورفيم والمقطع دون الفونيم في مثل لفظة «من،عن» إذ هما يتكونان من أكثر من فونيم، وأريد أن أختم هذا البحث بسؤال هو:

---

[18] ينظر دراسة الصوت اللغوي ص237.
[19] ينظر الأصوات اللغويةص160

هل الجهر والهمس فونيم؟ وهل التفخيم والترقيق كذلك، أم أن هذه الصفات لا تعد فونيما؛ لأنها تتعلق بالأصوات أو الحروف التي هي الفونيمات عند اللغويين، وإذا كان كذلك فهل هذه الصفات جزء من الفونيم؟ وهل يتجزأ الفونيم؟.

لمناقشة هذه الأسئلة يجب النظر في كتب اللغة وخاصة كتابات الدكتور :أحمد مختار عمر[20]، فقد ناقشها تحت عنوان «الفونيم الرئيسي والتحييد»، وقد حولت القارئ على هذا الكتاب اعتقادا مني أن الفائدة من هذا البحث والقصد منه –أيضا– فتح آفاق أمام القارئ، وإثارة تساؤلات حول الموضوع، مع إرشاده إلى المراجع التي قد يجد فيها ضالته.

نسأل الله الهداية إلى سواء السبيل ... والسلام.

[20] ينظر دراسة الصوت اللغوي ص217.

المصادر و المراجع

أ- المراجع العربية

القرآن الكريم .

1. أسس علم اللغة، تأليف: ماريوباي، ترجمة: د. أحمد مختار عمر. منشورات جامعة طرابلس، ت ط: 1972.
2. الأصوات اللغوية. د. إبراهيم أنيس، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ت.ط. 1961م.
3. التطور النحوي للغة العربية، المستشرق: براجشتراسر إخراج : د. عبد التواب، جامعة عين شمس القاهرة، ت. ط. 1982م.
4. الخصائص، لابن جني، دار الهدي للطباعة والنشر، بيروت، ت. ط. 1913 م .
5. دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين. بيروت. 1978 م .
6. دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ط. أولى 1976 م.
7. فقه اللغة وخصائصها. د. إميل بديع يعقوب. دار العلم للملايين، بيروت . ط. ثانية
8. ت. ط . 1986 م .
9. كتاب التعريفات، علي محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت. ت، ط 1969م
10. اللغة العبرية وآدابها، د. محمد التونجي، منشورات جامعة بنغازي مطبعة عين شمس القاهرة، ت. ط. 1976 م .
11. نظرات في اللغة . د: محمد مصطفى رمضان، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، ط : أولى، ت . ط . 1976 م .

ب . المراجع الإنجليزية

12- An Introduction to language . V. Fromkin R. Rodman. Third Edition. New York 1983.

13- An Introduction to the Comparative Grammar of Semitis Languages, Sabatino Moscati Germany 1964.